الباب الأول

فى فجر الإسلام

الباب الأول

فى فجر الإسلام

تم لعمرو بن العاص فتح مصر يوم أن وقع الهدنة بينه وبين «قيروس Cyrus» فى ديسمبر سنة ٦٤١م (المحرم ٢١ هـ). ثم دخل جيشه الإسكندرية بعد أحد عشر شهرًا - وهى مدة الهدنة المتفق عليها - وهذا هو الفتح الأول للإسكندرية[١]، وقد تم صلحاً لا عنوة، غير أن الروم لم يلبثوا أن استشعروا ضعف المدينة بعد عزل عمرو عن ولاية مصر وتولية عبد الله بن سعد، فعادوا إليها فى أواخر سنة ٦٤٥م (أوائل سنة ٢٥ هـ).

وندب عمر لقتالهم، فهزمهم خارج المدينة، ثم تتبعهم إلى أسوارها، ويقال إنه عندما رأى الأسوار تقوم سدًا مانعًا بينه وبين المدينة ندم أن لم يقدم على هدمها عند دخوله المدينة فى المرة الأولى، وحلف لئن أظفره الله بالمدينة ليهد من أسوارها[٢]، ثم هاجم هذه الأسوار بمجانيقه من ناحيتها الشرقية إلى أن سلمت له، ومن هنا ترددت القالة فى بعض الكتب بأن عمرًا هدم جميع أسوار الإسكندرية بعد دخوله إليها، وهى فى الحقيقة قالة ظالمة، والراجح أن بعض أجزاء السور من جهتيه الشرقية والجنوبية قد هدمت أثناء الحصار والقتال بين العرب والروم إبّان هذا الفتح الثانى للمدينة.

غير أن هذه الأسوار أعيد بناؤها فى العصر العربى، وليس من المعروف على وجه التحديد متى أعيد بناؤها، وإن كانت بعض المراجع تشير إلى أنها بنيت ثانية فى عصر أحمد بن طولون (فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى = ٩م).

ولم تكن الإسكندرية وقت أن دخلها العرب فى ازدهارها القديم، بل لقد كانت عوادى الزمن قد أتت على بعض معالمها، كما كانت الحوادث السياسية قد أتت على بعض آخر، فإن النزاع بين الرومان والبطالمة، ثم النزاع بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين، ثم النزاع بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين، كل هذا كان له أثره الواضح فى تخريب الكثير من معالم المدينة الهامة التى كانت تميزها وتزينها فى العصر اليونانى، فالمدينة وقت دخول العرب كانت قد فقدت مكتبتها الكبرى ودار حكمتها، والقصور الملكية لم يكن لها بهاؤها القديم وعظمتها

---

(١) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٨٩ من الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٢ - ٤١٣.

السالفة[1]، ومعبد السيرابيوم والقيصريون كانت قد نالت منهما أيدى التخريب إبان النزاع الدامى بين المسيحية والوثنية وإن كانت قد أقيمت على أجزاء منهما كنيستان كبيرتان.

ومع هذا كله فقد بهرت المدينة أعين العرب عند رؤيتها ورؤية مبانيها، فوصفوها وصف المعجب المشدوه، وأشاروا أكثر ما أشاروا إلى معالمها البارزة ومبانيها المميزة، كالمنارة وعمود السوارى وكنيسة القيصريين، ومسلات كليوباترة، وقصور المدينة، وحماماتها، وصهاريجها، وشوارعها المكسوة بالمرمر والرخام، وكثرة ما بها من عمد، وأخيرًا أسوارها وحصونها وأبراجها[2].

وقد انكمشت المدينة فى أوائل العصر العربى عما كانت فى العصور القديمة فلما أعيد بناء السور روعى أن يضم إليه المنطقة الآهلة بالسكان فقط وهى التى تحتاج إلى الدفاع عنها، وترك خارجه منطقتان كبيرتان فى شرقى المدينة وجنوبيها. أما المنطقة الشرقية فكانت تقوم عليها مقابر اليونان والرومان ولا حاجة لأن تضمهما الأسوار إلى المدينة، وأما المنطقة الجنوبية فكانت تضم بعض المزارع وبقية من أطلال معبد السيرابيوم وأطلال ما كان يحيط به من مبان وبيوت، يشرف عليها جميعًا عمود السوارى، ولم يكن هناك داع لصرف الأموال الطائلة لتوسيع محيط السور عند إعادة بنائه ليضم كل هذه الأطلال.

ويتضح الفرق بين مساحتى المدينة قبل الفتح العربى وبعده فى الخريطة التى رسمها الفلكى باشا لتخطيط أسوار المدينة فى العصرين، وقد بنيت للأسوار الجديدة أبواب تقابل الأبواب القديمة، وإن كانت قد سميت بأسماء جديدة، فالباب الذى بنى فى الشرق مقابل باب الشمس سمى باب رشيد، أو باب القاهرة، لأنه كان يؤدى إلى طريق رشيد، ومنها إلى القاهرة. والباب الذى بنى فى الغرب مقابل باب القمر سمى باب القرافة، لأنه كان يؤدى إلى جبانة هناك، وكان لا يفتح إلا يوم الجمعة، ثم بنى فى الجنوب باب سمى «باب سدرة»[3] فقد كانت تقوم

---

(١) بتلر، المرجع السابق، ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر الفصل القيم الذى كتبه بتلر فى كتابه السابق بعنوان «وصف الإسكندرية عند الفتح»، ص ٣١٩ – ٣٤٧، وما به من مراجع، والمقريزى (الخطط، ج ١ ص ٢٣٢ – ٢٧٣).

(٣) كان يطلق على هذا الباب فى العصرين الأيوبى والمملوكى «باب البهار» فقد كان بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم خليج الإسكندرية، حيث تفرغه خارج الإسكندرية عند هذا الباب. وفى الأوقات التى كانت تتعطل فيها الملاحة فى الخليج كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال تأتى عبر الطريق البرى وتدخلها من باب البهار لا من باب رشيد. انظر: (الدكتور جمال الدين الشيال، الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى) فصل من كتاب الإسكندرية الذى أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية فى سنة ١٩٤٩م ص ٩٦ – ١٠٣.

إلى جانبه شجرة عاتية من أشجار السدر، (أو باب العمود لإشرافه على عامود السوارى)، أما باب البحر فى شمال المدينة فقد بقى كما هو يشرف على الميناء الشرقى.

هذا أهم تغيير أصاب المدينة فى العصر الإسلامى الأول، يضاف إليه ما استحدث فيها من مساجد، تبعًا لوجود الحامية العربية بها، وازدياد عددها مع مرور الزمن، وتبعًا لانتشار الدين الإسلامى بين أهليها[1]. وقد أنشئ بعض هذه المساجد إنشاء، وأقيم البعض الآخر على أطلال المعابد أو الكنائس القديمة، وتشير مراجع العصر الإسلامى الأول إلى ستة من هذه المساجد، ولكنها لا تحدد مواقعها تحديدًا قاطعًا، وهى:

١ – مسجد سليمان عند القيسارية.

٢ – مسجد الخضر.

٣ – مسجد ذى القرنين (ولعله بنى بالقرب من قبر الإسكندر، ولهذا سمى بهذا الاسم).

٤ – مسجد عمرو بن العاص، وتنص المراجع على أنه بنى فى وسط المدينة، وكان يسمى أيضًا «مسجد الرحمة» لأنه بنى فى المكان الذى رفع فيه عمرو السيف عن أهل المدينة حين دخلها عنوة فى فتحه الثانى.

٥ – مسجد موسى، وقد بنى بالقرب من المنارة.

٦ – مسجد المنارة، وقد بنى داخل المنارة نفسها ليكون مصلى للجند المرابطين بها.

وقد أعجب عمرو بالمدينة ومبانيها حتى ليقال إنه كتب إلى الخليفة عمر يصفها له بقوله:

«لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة»[2].

كذلك يروى أنه لإعجابه بها فكر فى أن يتخذها عاصمة له، وأنه نظر إلى مبانيها بعد الفتح وقال: «منازل قد كفيناها»[3]، وكتب إلى عمر يعلن إليه هذه الرغبة، لولا أن عمر أرسل إليه

Combe: *(Les Levés de gravier d'Ortiéres a Alexandrie (1686). Dans; (Bulletin of the Faculty of arts, Farouk Ist. University Alex.). vol. I, 1943 P. 52-67).*

(١) انظر: مقال الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة «الإسكندرية من العصر العربى إلى نهاية العصر الفاطمى»، كتاب الغرفة التجارية عن الإسكندرية، ١٩٤٩م ص ٨٦.

(٢) بتلر ص ٣١٩ وما به من مراجع، وانظر أيضًا: (السيوطى، حسن المحاضرة ج ١ ، ص ٥٤).

(٣) السيوطى، نفس المرجع، ج ١ ، ٥٧.

ينصحه باختيار مكان آخر لا يفصل بينه وبين بلاد العرب ماء، فتحول عمرو منذ ذلك الحين عن الإسكندرية إلى الفضاء المجاور لحصن بابليون وبنى عليه عاصمته الجديدة الفسطاط[1].

ولم يؤثر تأسيس الفسطاط فى مدينة الإسكندرية، بل لقد حافظت على مكانتها القديمة واعتبرت منذ ذلك الحين العاصمة الثانية لمصر، وظلت دائمًا موضع العناية من الخلفاء وولاة مصر، فقد كانت فى نظرهم جميعًا ثغرًا من أهم الثغور الإسلامية التى يجب العناية بها وبحصونها وبوسائل الدفاع عنها.

لهذا لا نعجب إذا رأينا المدينة تنمو فى هذا العصر العربى الأول ويزداد عمرانها، فقد استقر بها عدد كبير من العرب، ونزلوا بيوتها القديمة، أو بنوا لأنفسهم بيوتًا جديدة تشير المراجع إلى بعضها، كالبيت الذى بناه الزبير بن العوام بعد الفتح، والمنزل الكبير الذى كان ينزله خمارويه بن أحمد بن طولون عند مربوط بضواحى الإسكندرية.

فالإسكندرية كانت تعتبر ثغرًا من الثغور الإسلامية الهامة ورباطاً كبيرًا ترابط فيها منذ دخلها المسلمون حامية مسلحة كبيرة، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الإسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ثم يستبدلون بربع آخر، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الإسكندرية، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين،وحاولوا الهجوم عليها لاستردادها.

وكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد نقض الروم يقول:

«قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فالزم الإسكندرية رابطتها، ثم أجر عليهم أرزاقهم، وأعقب منهم فى كل ستة أشهر».

وقد بلغت حامية الإسكندرية فى عهد معاوية سبعة وعشرين ألف جندى منهم عشرة آلاف من أهل الشام، وخمسة آلاف من أهل المدينة ترابط دائمًا فيها لحمايتها.

ومن الأقوال المأثورة:

«أربعة أبواب من أبواب الجنة مفتحة فى الدنيا: الإسكندرية، وعسقلان، وقزوين، وجدة»

---

(١) جمال الدين الشيال (الفسطاط، كيف اختير مكانها، ولم سميت بهذا الاسم) مقال بمجلة الرسالة، العدد ٦٤٠، ٨ أكتوبر ١٩٤٥م، وقد نشر هذا البحث أخيرًا ضمن فصول كتاب للمؤلف ظهر أخيرًا بعنوان «دراسات فى التاريخ الإسلامى»، بيروت، ١٩٦٥م.

ومنها: أن الإسكندرية..

«كنانة الله يحمل فيها خير سهامه»

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى:

«لما نعى إلى ابن عمى خالد بن يزيد - وكان توفى بالإسكندرية - لقينى موسى ابن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد متفرقين، كلهم يقولون: هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك».

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوع من الجهاد، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد.

وكانت حامية الإسكندرية مقسمة إلى عرافات، ولكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه، فتكون الدار لقبيلتين أو ثلاث، وللمدينة أبراج عالية يقف عليها الحراس، وتسمى مثل هذه الأبراج: المحارس، أو المناظر، أو المراقب، أو الطلائع، فإذا بدا فى أفق البحر شىء من سفن العدو أعطى حراس المراقب الإنذار، فاجتمع الجند من كل طائفة فى عرافتها، وكان بالرملة (الرمل حاليًا) أربعة آلاف فارس للنجدة.

وكانت المنارة الكبرى فى جزيرة فاروس أعلى هذه الأبراج وأهمها لإشرافها على البحر مباشرة، وكان المسلمون يحتفلون حولها كل عام احتفالا خاصًا يعتبر إيذانا ببدء موسم الجهاد والاستعداد، فكان إذا حل فصل الربيع خرج سكان المدينة فى يوم خاص يسمى «يوم خميس العدس»[1] إلى المنارة فيقيمون فيها أو حولها يلهون ويلعبون ويأكلون المآكل المختلفة - ومن بينها العدس - فإذا انتهى اليوم عادوا إلى المدينة، وبدأ الجنود المرابطون يحترسون من ذلك اليوم على البحر والمدينة من هجوم العدو.

ومن معالم المدينة فى هذا العصر - غير ما ذكرنا - الدور الحكومية المختلفة، تشير المراجع التاريخية إلى وجودها، غير أنها للأسف لا تحدد مواضعها، فمنها:

- دار الإمارة[2] حيث كان ينزل الوالى.

- دار الصناعة - أى صناعة السفن - وكانت من أوائل ما أقيم من منشآت فى المدينة، فقد أنشئت فى عهد الوالى العربى الثانى عبد الله بن سعد بن أبى السرح لبناء السفن التى اشتركت

---

(١) وصحته «خميس العهد»، وهو من أعياد القبط القديمة، انظر: (المقريزى، الخطط، ج ٣، ص ٣٩٢).

(٢) ذكر (الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٦) أن والى مصر (سنة ٤٣هـ - ٤٤هـ) عتبة بن أبى سفيان «خرج إلى الإسكندرية مرابطًا، فابتنى دار الإمارة التى فى الحصن القديم (؟)».

فى موقعة ذات الصوارى، أول موقعة بحرية انتصر فيها العرب على الروم، ولعلها أقيمت حيث كانت توجد دار الصناعة الرومانية القديمة فى الميناء الشرقى وإن كان النويرى يذكر أن الإسكندرية كان بها فى القرن الثامن الهجرى داران للصناعة، إحداهما فى الميناء الشرقى، والثانية فى الميناء الغربى.

– دار الطراز[1]، وهى الدار الملكية لصناعة المنسوجات، وأغلب الظن أن الإسكندرية الرومانية كانت تعرف هذا النوع من المصانع، وأن دار الطراز العربية ما هى إلا استمرار لهذا المصنع الرومانى القديم بعد إدخال التعديلات المناسبة على نظامه.

عرف خلفاء العصر الأول للإسكندرية هذه المكانة المتازة – حربيًا عمرانيًا واقتصاديًا – ولهذا أوشك بعضهم أن يعتبرها إمارة خاصة، فكانوا يولون عليها من قبلهم أمراء يكادون يستقلون عن ولاة مصر، كما حدث حين ولى أحمد بن طولون – أول أمره – على مصر كلها دون الإسكندرية، فلما توفى باكباك، وعين أماجور – أحمد بن طولون – خلفًا له ضم إليه ولاية الإسكندرية كذلك.

وقد شاركت الإسكندرية – بحكم مركزها هذا – مشاركة فعالة فى معظم الأحداث السياسية التى شهدتها مصر فى العصر العربى الأول، وخاصة فى حوادث النزاع بين أمراء مصر الذين حكموها فى العصر العباسى الثانى، كما بدأت منذ ذلك العصر تتصل بحوادث المغرب والأندلس – بحكم موقعها الجغرافى – وخير مثال لذلك استضافتها للأندلسيين[2] الذين طردهم من الأندلس الحكم الربضى بعد ثورات الربض المشهورة، والحوادث التى قام بها هؤلاء الأندلسيون أثناء مقامهم فى المدينة إلى أن جلوا عنها أثر هام فى تاريخها.

---

(١) انظر: الدكتور جمال الدين الشيال، المقال السابق (الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى). و (نفس المؤلف، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩م، ص ٦٩ – ٧٥) والدكتور محمد عبد العزيز مرزوق (الزخرفة المنسوجة فى العصر الفاطمى). Inc. Isl. Art. Tiraz

(٢) عن أخبار هؤلاء الأندلسيين انظر: (الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٥٨، ١٦١ – ١٦٥) و (فازيليف، العرب والروم، الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة – ١٩٥٠م، ص ٥٣ – ٥٧، وما به من مراجع)، (وصديق شيبوب، معارك الإسكندرية. الإسكندرية ١٩٦٢م؟، الفصل المعنون: غزوة الربضيين، وقد سبق أن نشر هذا الفصل بعنوان: جمهورية أندلسية فى مجلة الكتاب، فبراير ١٩٤٩م).